الفصل الثالث

# دولة الحاجب المنصور ابن أبي عامر

- الحاجب المنصور.
- عبدالملك المظفر بالله.
- عبدالرحمن بن أبي عامر المنصور (شنجول).

obeikandl.com

obeikandl.com

# الحاجب المنصور

لم يدر بخلَد ابن أبي عامر في يوم من الأيام أن يصل إلى ما وصل إليه من جاه وسلطان، لكنه توفيق العلي القدير.

وقد أورد صاحب كتاب «المعجب» قصة ظريفة عن محمد بن أبي عامر مع أحد أصدقائه حدثت عندما كان كاتباً صغيراً عند باب القصر في قرطبة فقال:

كان محمد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أول الليل حين فصلتُ عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة. قال: لا، قلت: فما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة، قلت: في ماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت إذا أفضى إلي الأمر ومات محمد بن بشير القاضي، بمن أبدله، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجُلْتُ الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً. قلت: لعله محمد بن السَّليم قال: هو والله هو، لَشَدَّ ما اتفق خاطري وخاطرك.

قال الحميدي: وأخبرني الفقيه أبو محمد علي بن أحمد قال: كان ابن أبي عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم فقال لهم: ليَخْتَرْ كل واحد منكم خطة أولِّيه إياها إذا أفضى إليَّ الأمر. فقال أحدهم: توليني قضاء كورة رَيَّة، وهي مالقة، وأعمالها، فإنه يعجبني هذا التين الذي يجيءُ منها.

وقال الآخر: توليني حسبة السوق، فإني أحب هذا الإسفنج. وقال الثالث: إذا أفضى إليك الأمر فأمر أن يطاف بي قرطبة كلها على حمار ووجهي إلى الذنب وأنا مطلي بالعسل ليجتمع عليَّ الذباب والنحل. مستبعداً أن يفضى الأمر إليه، بل يراه مستحيلا، فليس أموياً، أو ذو أرومة تجعله يطمح إلى الحكم. وافترقوا على هذا، فلما أفضى إليه الأمر كما تمنى بلَّغ كلّ واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب.

وقد غزا نحو سبعة وخمسين غزوة لم تهزم له راية، ولم يفل له جيش، وقد جلب البربر من المغرب للاعتماد عليهم في غزواته خوفاً من منافسة العرب لسلطانه، وكان يتولى قيادة الجيش بنفسه، قيل عنه: «إنه تمرس ببلاد الشرك أعظم تمرس، ومحا من

طواغيتها كل تعجرف وتغطرس، وغادرهم صر البقاع، وتركهم أذلَّ من وتده بقاع». وقيل: «وكان متسماً بصحة باطنة واعترافه بذنبه، وخوفه من ربه، وكثرة جهاده، وإذا ذُكِّر بالله ذكر، وإذا خُوِّفَ من عقابه ازدجر، ولم يزل متنزهاً عن كل ما يفتتن به الملوك سوى الخمر، لكنه أقلع عنها قبل موته بسنتين، وكان عدله في الخاصة والعامة، وبسط الحق على الأقرب فالأقرب من خاصته وحاشيته أمر مضروب به المثل». وقال عنه ابن الخطيب: «وكانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم يخلعه إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله، لا يفضل لذة على تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره، فينفذ الأمور، والكأس تدور، والجبال للطرب تمور».

وقد كان يصطحب العلماء والفقهاء معه في حلّه وترحاله، ويستزيد من زادهم، وينهل من معينهم، وكان حريصاً على الكتب والمكتبات، كارهاً لكتب الفلسفة وعلم الكلام فأمر بإخراجها من المكتبة وحرقها.

عندما أيقن أنَّ الدنيا دانت له، وأنه قد اختلى بالملك، وردع كل ذي إفك، أراد أن يصنع لنفسه قصراً فابتنى مدينة جديدة بالقرب من الزهراء سماها الزاهرة، وتسمى بالحاجب المنصور، وكان يتم الدعاء له على المنابر بجانب الخليفة.

وبعد مرور خمس سنوات أصبح يراسل «بالملك الكريم»، كما تولى ابنه عبدالملك ولاية العهد، وخصه بالحجابة والقيادة، وتفرغ للأمور الكبرى.

ولقد راودته نفسه أن يتسمى بالخلافة، لكن ابن حزم أشار عليه بالعدول عنها خوفاً من إثارة الخاصة والعامة.

ولم تكن كل أيامه سعد، فقد شابها بعض من المنغصات، فقد كان ابنه عبدالله البالغ من العمر واحداً وعشرين عاماً يأخذ على أبيه تقريبه لابنه عبدالملك والرفع من شأنه على حساب إخواته الآخرين، لكن ابن أبي عامر يشك في بنوة هذا الفتى لذلك لم يقلده أمراً من أموره المهمة.

وذهب الفتى إلى أحد ولاة ثغور الشمال وهو عبدالرحمن النجيبي، واتفقا على نزع الملك من المنصور واقتسامه بينهم، وانضم إليهم عبدالله المرواني حاكم طليطلة، لكنَّ المنصور استطاع استمالة ابنه بالحيلة، ووعده بالغالي والنفيس فقدم إليه، كما أنه استمال عبدالرحمن ثم قتله، أما ابنه فقد هرب مع بعض من رفاقه ولجأ إلى حاكم قشتالة، وحاصر المنصور حاكم قشتاله فنزل على طاعته وسلمه ابنه عبدالله، فقام المنصور بقطع رأس ابنه وإرساله إلى الخليفة. كما قامت حروب بينه وبين صهره وحليفه غالب بن عبدالرحمن كانت الغلبة فيها للمنصور.

وتوفي المنصور بعد أن ثبَّت حكم بني مروان الاسمي وحكمه الفعلي، ليورثه لابنه عبدالملك من بعده.

وكان المنصور يحمل معه في ضعنه وإقامته مصحفاً كتبه بخط يده، يجمع كل ما يعلق به من تراب، وقد أوصى بأن يدفن هذا التراب معه في قبره، وأن يُكفَّن بكفن كان يرافقه، داعياً ربه أن يموت مجاهداً، فحقق الله مراده فمات مجاهداً في الشمال على إثر جراح أصيب بها.

وعلينا أن نقول بحق إنَّ عصر المنصور الحاجب خال من مآسي العامة، إلا أنَّ كثيراً من الخاصة اكتوى بالكثير من المآسي، فهو عصر مآسي الخاصة، حيث قتل الكثير من سراة القوم وعلاتهم دون رحمة أو شفقة، وقتل بالظنة ولعل ذلك حيطة وحذراً.

ومأساة أخرى أصابت بنات الأحرار، فقد قَلَّ طالبهم وباروا بأيدي أولياء أمورهم، وكان الرجل يدفع المبالغ الطائلة بمن يتزوج ابنته، ومرَدُّ ذلك إلى كثرة السراري والسبايا من بلاد العجم حتى اكتظَّتْ بهم البيوت، وامتلأت بهم الأسواق، وقلَّتْ أسعارهم، وسهل منالهم، فراجت مجالس اللذات وتعددت صنوف المسرات، وهُجِرت مناهل العلم، وقلَّتْ مخافة الإثم.

بوابة إحدى القصور في عصر الحاجب محمد بن أبي عامر

obeikan.com

# عبدالملك المظفر بالله

عـاد عبدالملك المظفر بـالله ابن الحاجب المنصـور محمد بن أبي عامـر إلى قرطبة وأصـدر الخليفـة أمـراً بتعيينه في منصـب الحجابة، تـاركاً لأخيه عبدالرحمـن العناية بمـواراة جثمـان والده، فتم له مـا أراد وهو في الثامنة والعشـرين من عمـره، وأمه حرة اسـمها «الذلفاء»، شـأن والده الذي كانـت أمه حرة من بني تميم، وتسـمى «فرهة» بنت يحيى بن زكريا التميمي الذي كان يعرف بابن بَرْطَل.

اسـتمرت مدة حجابته نحو سبع سنوات، وكانت تسـمى بالسابع تشابهاً بسابع العروس، ولم يكن عصر مآسي على مستوى العامة، غير أنَّ هناك بعض المآسي التي أصابت بعض الخاصة.

بدأ عصـره بإسقاط سـدس الجباية، فرغب فيه العامة وحسن رأيهم فيه واستبشروا خيراً بعهده، واعتمد على الصقالبة وبعض أهل الذمة إضافة إلى ركيزته الأساسية البربر، لاسـيما مغراوة وزناتة، فكانوا أسـاس جيشه وحرسه، واسـتبعد العرب والمولدين، وكان عضـده أخاه عبدالرحمن «شـنجول» نسـبة إلى جده لأمه سانشـو، وهي بنت ملك نافار سانشـو، قدمهـا والدها عروسـاً للمنصـور محمـد بن أبي عامـر تقرباً إليـه، فاعتنقت الإسلام، وكانت من أحب نسائه إليه، وسماها «عيده».

واصـل عبدالملك المظفر بالله غزو الشمال مثل ليون وقشتالة، وفي أحد غزواته أصابه وجنده رعد وبرق وبرد ومطر شـديد كاد يقضـي على جيش عبدالملك المظفر بالله، فعاد دون غنائم أو سبايا، فما كان ترحيب سكان قرطبه بالقدر المأمول نظراً لقلة العائد.

كان عبدالملك المظفر محباً للَّهو منهمكاً في الملذات، عاشـقاً لشـرب الخمر مثل أبيه، ولهذا فقد اعتمد في تدبير شؤون حكمه على خاصته وعلى رأسهم وزيره ووزير أبيه عيسى ابن سـعيد اليحصـبي المعروف بابن القطاع، فكانت مفاتيح التدبـير بيده، وقلائد الملك تحت إدارته، وزاحمه على ما بيده أحد الفتيان الصـقالبه واسـمه طُرْفة، فكان الحسـد بينهما بيناً، والمكائد ظاهرة، وكانت الغلبة لعيسى، ثم استطاع طُرفة إيغال صدر الحاجب عبدالملك المظفر، فهو ابن القصـر الذي تتيح لـه الظروف محادثة الحاجب والدس على

غريمه، ومن خلال طُرفة علا شأن الخصيان الصقالبة، وزادت سطوتهم، وعلا كعبهم، فزادهم ذلك كبراً وطغياناً.

مرض الحاجب ذات مرة، فأخذ الفتى طُرفة في تسيير الأمور دون أمر الحاجب وبما لا يوافق إرادته، وعندما برئ مما أصابه، بقي شيء من الكدر في نفس عبدالملك، وأخذت الريبة تتسرب إلى قلبه، وخرج الحاجب في أحد غزواته ومعه الوزير عيسى بن سعيد، فرأى أنَّ من الصواب استغلال فرصة تفرده بالحاجب للإطاحة بطُرفة غريمه، فأخذ يعدد له مثالب خصمه وتجاوزه حدوده، وبعد عودة الحاجب أمر بالقبض على «طُرفة» وقتله وقتل جليسه ونديمه الأديب عبدالملك بن إدريس الجزيري، وبهذا استطاع عيسى بن سعيد الانفراد مرة أخرى بالنفوذ، وحتى يوطد تلك الثقة، ويأمن غائلة التحول، زوج ابنه عبدالملك بأخت عبدالملك المظفر بالله بنت المنصور، وبهذا تربع على مقاليد شؤون الحكم.

وبقي لعيسى بن سعيد اليحصبي غريم واحد، خلاله السيئة، وأخلاقه القبيحة، وتعاليه وصلفه، وانصرافه عن قضاء حوائج الناس، وتعسفه في معاملتهم، فكثر حساده والناقمون عليه الذين حاولوا الإطاحة به.

وكان عيسى بن سعيد منصرفاً عن مجالس الشرب بينما كان الحاجب عبدالملك المظفر منغمساً فيها، فكانت الفرصة متاحة أكثر لجلاس الشراب والأنس للنيل من عيسى بن سعيد، فبدأت هذه الدسائس تدب دبيب النمل في عقل الحاجب لاسيما أنه كان أذناً يسمع كثيراً للغير، ويتغير موقفه بمقدار ما يسمع من وشاية، وقد زاد الطين بلة موقف عيسى بن سعيد المشجع لزواج الحاجب عبدالملك المظفر من قينة من جواري القصر هام بها، وكانت أم الحاجب «الذلفاء» التميمية رافضة لهذا الزواج مقبحة له عند ابنها، لكن الهيام والغرام ورُسلُ القلب أقوى من رفض أم، أو تحكيم عقل عند الحاجب عبدالملك المظفر بالله.

أحس عيسى بن سعيد بجفاء الحاجب عبدالملك المظفر فراودته نفسه أن يظفر به قبل أن يقصيه، فكاشف هشام بن عبدالجبار بن عبدالرحمن الناصر، وكان صديقاً حميماً له بما في نيته وأنه الأجدر بذلك لكونه الأموي الذي سلب بني عامر حكمهم وهم أجدر

به من غيرهم، فكانت الخطة تقضي بأن تتم دعوة الحاجب عبدالملك المظفر بالله وأخيه عبدالرحمن إلى وليمة بمناسبة مولودة جديدة، ثم يتم الإطباق عليهما والتخلص منهما، وتولي هشام بن عبدالجبار حكم البلاد اسماً وفعلاً.

وشاء الله سبحانه وتعالى كشف المكيدة من خلال أحد خواص عيسى بن سعيد من الخصيان الذي أبلغ الأمر إلى نظيف الفتى الصقلي الذي نقله إلى الحاجب، فقبل الحاجب عبدالملك المظفر الدعوة وقد أعد العدة للإيقاع به قبل بدء تنفيذ مؤامرته، غير أنه أقام حفل لهو تدور فيه كؤوس المُدام قبل تاريخ الاحتفال بالمولود.

ودعي عيسى بن سعيد وأصدقاؤه حسن بن فتح وخلف بن خليفه، واستقبله الحاجب عبدالملك بحفاوة بالغة ، وبعد أن جلس وأخذ قسطاً من الراحة، أخذ الحاجب في تأنيبه، ثم جر سيفه من تحت فراشه وأشهره في وجهه وطعنه به عدة طعنات ثم انهال عليه الفتيان ضرباً وطعناً وكذا فعل بصاحبيه، ثم اجتزت رؤوسهم وألقيت جثثهم في النهر، وصلب رأسه على باب مدينة الزاهرة وظل معلقاً، وسلبت أموالهم،و صودرت دورهم، وأجبر الحاجب عبدالملك المظفر بالله أخته على الطلاق من زوجها عبدالملك بن عيسى، فتم له ما أراد.

وكان أبو العلاء صاحب أبي الحسن اللغوي منقطعاً إلى عيسى ومن أقرب الناس إليه، وبعد أن علم بالأمر مال حيث تميل الريح، ونافق حيث محل النفاق، ومالق حيث موقع الملق، فقلب لصاحبه ظهر المجن وسارع بالانقلاب عليه، فقال شعراً دون خجل أو حياء:

**فتلك هامته في الجو ناطقة تحدث الناس من آبائها عبرا**
**مكتوبة الوجه بالهندي يقرؤه من ليس يقرأ مكتوباً ولا سَطَرا**

وبعد مقتل عيسى بن سعيد اليحصبي باشر الحاجب عبدالملك المظفر بالله أموره بنفسه، وترك مجالس اللهو، وأخذ بزمام الأمور، وأحسن التدبير، فتحسنت أحوال البلاد، لكنه تحسن رافقته الدعة والاطمئنان لا الحذر والتوجس.

وعبدالملك المظفر بالله لين المعشر، وكان أكثر رقة وأحسن معاملة للخليفة، فقد سمح له بالخروج إلى الزاهرة، وكان يشاركه بعض مجالس لهوه ويتلطف إليه.

ولم يكن الحاجب عبدالملك محباً لمجالس العلم والعلماء، فكانت مجالس اللهو أحب إلى قلبه، وكان يشاركه فيها الكثير من الصقالبة والأعاجم والبربر.

عزم عبدالملك المظفر بالله على غزو الشمال لإخضاعه فأصابته علَّة وهو في مدينة سالم، وسميت لذلك غزوة «العله» وهي آخر غزواته، وانتظر راجياً برأه فطال المقام وتفرق بعض الجند، إلا أنه وثب للغزو بعد أن أحسَّ ببعض التحسن، فعاوده المرض وزاد، فحمل إلى قصره في الزاهره ومات بسبب ما أصابه من مرض، غير أن بعض المؤرخين يرون أن سبب الوفاة سُمٌّ دسَّه له أخوه عبدالرحمن، حيث وضعت المائدة وأكل منها عبدالرحمن من موقع خلا من السم بينما جعل السم في موقع أكل منه عبدالملك المظفر.

أما ابن الأثير فيقول: إنَّ أخاه عبدالرحمن سمَّه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها، فناول أخاه مما يلي الجانب المسموم وأخذ مما يلي الجانب الصحيح، فأكله بحضرته، فاطمأن المظفر فأكل ما بيده منها فمات.

وما أظن هذا إلا من قبيل الأحاجي التي تنسج حول كل مشهور.

obeikandl.com

# عبدالرحمن المنصور (شنجول)

مرحلة حرجة من مراحل الأندلس، ونهاية لحقبة من تاريخه وزوال حكم المنصور محمد بن أبي عامر وأبنائه، ونهاية لاغتصابهم السلطة من صاحبها الشرعي الخليفة هشام المؤيد الأموي الذي ليس له منها غير مسماها.

بداية المأساة الحقيقية للأندلس وتحول مسار المنحنى إلى الانحدار الحاد في أحداث سريعة متعاقبة.

لقد تولى عبدالرحمن بن أبي عامر الحجابة بعد أخيه عبدالملك حال وفاته وعمره آنذاك خمسة وعشرون عاماً، ويكنى بأبي المطرف، وتسميه المراجع العربية «شنجول» لشبه ورثه من جده شنجول، وهو تعريب لاسم جده «سانشو»، وكان يجمع من الصفات أسوأها، ومن الخلال أحقرها، ومن الأخلاق أرذلها.

فقد كانت أمه ابنة «سانجو غرسيه» ملك «بافاريا»، وهذه بحد ذاتها مدعاة للريبة والكراهيه لهذا الحاجب الجديد، فجده لأمه من أعداء الإسلام المتربصين به، وإذا به يتولى قيادة المسلمين رغم أنوفهم في ظل وجود خليفة شرعي ضعيف غير قادر على مغادرة قصره.

كان مجاهراً بالمعاصي، ماجناً، مستهتراً، همه اللهو والطرب، ومقارعة كؤوس الخمر، والاستئناس بالمحضيات والغلمان، فجمع من الخنى والفحش أجلَّه.

واصل الحجر على الخليفة شأنه في ذلك شأن أبيه وأخيه، إلا أنَّه كان أكثر تودداً للخليفة، وألطف تعاملاً، وأجمل ملقاً، لغاية يرومها، وهدف يبتغيه، وكان وزير الخليفة وكاتبه هو جهور بن محمد، وإذا برقعة تصل إليه من الخليفة بتدبير من الحاجب عبدالرحمن بالإنعام عليه بلقب «الحاجب المأمون ناصر الدين أبو المطرِّف حفظه الله» فكانت هذه التسمية مدعاة للسخرية والتندر بإضفائها على رجل ليس لديه من الخلال ما يستوجب الإنعام بها عليه.

لم يتوقف عند هذا الحد، بل انتقل إلى مرحلة أخطر بكثير كان فيها حتفه، ونهاية ملك أسرته، فقد أقنع أو أجبر الخليفة الضعيف المحاصر في قصره بأن يوليه ولايه العهد حيث لا عقب له، ومالأه على ذلك قاضي الجماعة أبوالعباس أحمد بن عبدالله بن ذكوان وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد وغيرهم من المنتفعين.

وصدر أمر الخليفة بذلك بحضور الوزراء وكبار القوم ووجهائهم وكتبت شهادتهم جميعاً، وقد استحسنت إيراد نص الأمر لطرافته وتناقض ما فيه من مديح لعبدالرحمن بما لا تنبئ عنه شواهد أفعاله، فكان بذلك خطاب البيعة أنموذجاً للملق والنفاق والسعي وراء المصالح جاء فيه:

«هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمَّه ما جعل الله إليه من الإمامة، وعَصَب به من أمر المؤمنين، واتقى حلول القَدَر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تؤي إليه، وملجأ تنعطف عليه، أن يكون يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها، ويعوّل في القيام به عليه، ممن يستوجبه بدينه وأمانته، وهديه وصيانته، بعد اطرَّاح الهوى، والتحري للحق، والتزلف إلى الله جل جلاله بما يرضيه، وبعد أن قطع الأواصر، وأسخط الأقارب، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده، ويفوض إليه الخلافة بعهد، لفضل نفسه وكرم خيمه، وشرف مرتبته وعلو منصبه، مع تُقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب، أبي المطرِّف عبدالرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، وفقه الله، إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله تعالى- قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً في الخيرات، سابقاً في الحلبات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمأثرات، ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه، فلا غرو أن يبلغ من سبل البر مداه، ويحوي من خلال الخير ما حواه، مع أنَّ أمير المؤمنين - أيده الله - بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عمرو بن العاص وأبو هريرة رضي

الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه**»، فلما استوى له الاختيار، وتقابلت فيه الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره معدلاً، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته وفوض إليه الخلاف بعد وفاته، طائعاً راضياً مجتهداً، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه، وأنجزه ونفذه، ولم يشرط فيه مثنوية ولا خياراً، وأعطى على الوفاء به سره وجهره وقوله وفعله، عهد الله وميثاقه، وذمة نبيه محمد ﷺ، وذمم الخلفاء الراشدين من آبائه، وذمة نفسه، أن لا يبدل ولا يغير ولا يحول ولا يزول، وأشهد الله على ذلك والملائكة، وكفى بالله شهيداً، وأُشهد – من أوقع اسمه في هذا – وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المطرِّف عبدالرحمن بن المنصور وفقه الله تعالى وقبوله ما قلده، وإلزامه نفسه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة».

خرج عبدالرحمن في موكب عظيم إلى قصر الزاهرة وهو يختال في ثوب الخلافة ظناً منه أنه مستحق لها، وأن لديه من الأرومة ما ترفعه إلى هذا المقام، ومع هذا فقد أقبل إليه المهنئون من بني مروان وهم يرون ملكهم يخرج من أيديهم إلى غيرهم، وجاء القرشيون له مهنئين وهم له مبغضون، وبدأت العصبية القبلية تسري في عروقهم، فكيف تنتقل الخلافة من المضرية إلى اليمانية، بل من القرشية إلى غيرها، وتبعهم في ذلك كبار رجالات الدولة وزعماء القوم على غير رغبة منهم.

قال أحد الشعراء في حق ابن ذكوان وابن برد:

**إن ابن ذكوان وابن برد ... قد ناقضا الدين بعد عهد**
**وعاندا الحق إذ أقاما ... حفيد شنجه ولي عهد**

وأراد عبدالرحمن ولي العهد أن يفعل ما كان يفعل أبوه وأخوه، فأعلن الغزو وخرج إلى الشمال في فصل الشتاء والسماء تبرق وترعد، وتسقط على الأنهار والجبال والوديان مطراً غزيراً زادت معه مشقة السير، وحلَّ العناء بالجيش وولي العهد عبدالرحمن غارق في شربه ولهوه.

وصل إلى حصون أعدائه فوجدها محصنة وأبوابها موصدة، فعاد أدراجه حتى إذا ما وصل إلى طليطلة إذا به يسمع نبأ أمر حلَّ بقرطبة فسارع بالنكوص.

هذا الأمر الذي حل بقرطبة أمر جلل حدثت على أثره متغيرات سياسية كبيرة، ولحق بالأندلس من خلالها عظائم الأمور، فكانت البداية لضرام كان تحت رماد، فحلت المآسي تلو المآسي في بلاد الأندلس، وهذا ما ستسطره لنا الأحداث المتعاقبة.

بعد أشهر من حكم عبدالرحمن بن أبي عامر الذي نصب نفسه ولياً للعهد، يتبين للناس سوء فعله ومجونه واستهتاره، فتحادث الناس فيما بينهم صغيرهم وكبيرهم، دهماءهم وزعماءهم، من خلال التندر على الخليفة وولي عهده وولاتهم، ونفاق خاصتهم من فقهاء وولاة مع علمهم بفساد سريرتهم.

استغل هذا الوضع عدد من الناقمين على حكم ابن أبي عامر وأبنائه، سواء لمآرب شخصية أو لدوافع انتقامية، وكان هناك رأسان مدبران للانتقال من السخط الخاص والعام إلى عمل ميداني يتم به إزاحة عبدالرحمن بن أبي عامر عن السلطة، وربما هشام المؤيد بالله عن الخلافة.

كانت «الذلفاء» والدة عبدالملك المظفر أحد الرأسين الفاعلين، ظناً منها أن عبدالرحمن ولي العهد المزعوم قد سمَّ ابنها عبدالملك المظفر ليتفرد بالحكم، وكان لديها من الجاه والمال والأتباع ما تظن أنها تستطيع به فعل شيء للإطاحة بعبدالرحمن، وأخذت على عاتقها الاتصال ببني أمية لعلها تجد فيهم من تكون لديه النجابة وسداد الرأي والجرأة للقيام بمهمة إقصاء عبدالرحمن، وكان محلَّ ثقتها في التواصل أحد الخصيان الصقالبة فتى يسمى بشرى، وكان من فتيان المروانية المنقط لهم بالولاء ثم انتقل إلى العامرية مع من انتقل من القصر، ورحب الكثير من بني أمية برأيها واختاروا رجلاً من بينهم في الثالثة والثلاثين من العمر أمه أم ولد تدعى «مزنة»، فيه من صفات المغامرة والجرأة الشيء الكثير، غير أنه أبعد ما يكون عن النجابة وسداد الرأي.

ولم يكن بنو مروان الأشد سخطاً على حكم بني أبي عامر، بل يماثلهم في ذلك القرشيون والبيوت العربية النجيبة، لأجل ذلك كانت الظروف متاحة للانقضاض، قال

ابـن الخطيـب: «وقد جبل الله أهـل قرطبة على الملل مـن ملوكها، والقلق بـذوي أمرها، والإرجاف بما يتوقع لها، وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة تُؤَثِّر عنهم في العامريين نوادر حارة، كان المنصـور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم، ويأمرهم بإنهاء وعيده، ويشاقههم بانكساره، ولايزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وانكساره أقصى المبالـغ، ضـرباً للظهـور، وقطعاً للأسـنة، فلما ذهـب عبدالرحمن هذا المذهـب، وأطاع هذاالخرق، كثر الحمل، وشهرت البغضة».

وفي اليوم السادس عشر من جمادى الأول عام ٣٩٩ هـ، كان اليوم الذي رآه محمد بن هشام المرواني مناسباً لبدء مهمته، وهذا اليوم جدير بأن يسجل، فهو يوم تحول كبير في تاريخ المسلمين في الأندلس يستحق التنويه به.

سار محمد بن هشام الشاب المغامر مع اثني عشر فتى من الصقالبة منهم طرسوس المجوسـي، ودخل علـى حاكم المدينة وابن عم عبدالرحمن بن أبي عامر واسـمه عبدالله ابـن أبي عامر وكان يحتسـي الخمر مع قينتين، فأحضـر إلى محمد بن هشـام مخموراً فأمر بقتله واجتز رأسـه ورفعه على أحد الرماح، فلما رأت العامة ما حلَّ بحاكم المدينة، التف الناس صالحهم وطالحهم حول الوافد الجديد رغبة في التغيير، فانتشرت الفوضى وسـارت العامـة إلى سـجن العامرية فأطلقوا كل من بالسـجن مـن مظلومين ومجرمين ولصوص، فاختلط الحابل بالنابل وهجر العقل وغلب الهوى.

وعلـم الخليفة هشـام المؤيد المحجـور عليه في قصـره بالأمر، فأمـر الفتيان بإغلاق أبواب القصـر ثم صعد إلى سطح قصـره مع اثنين من خدامه ورفعوا المصاحف، وحاول أن يتحدث إلى الناس فأسـمعوه ما لا يرضـيه، وتسـلق بعض من أعوان محمد بن هشـام الأسوار كما حاول بعضهم الآخر اقتحام الأبواب، واستطاع من تسلق إلى القصر الوصول إلى مخازن السـلاح فكان لهم ما أرادوا فقويت شـوكتهم، فأسـرع الخليفة هشـام المؤيد بإرسال مبعوث إلى محمد بن هشام متعهداً بإبعاد ابن عامر ومشاركته إياه في الخلافة، فأبى محمد بن هشام وطلب من المبعوث أن يبلغ الخليفة بضرورة فتح باب القصر، فأمر فتاه فاتن بفتح الأبواب واتخذ من فوره قرارات مهمة منها تعيين سـليمان بن هشـام أحد

رجـالات بني أميه ولياً للعهد كما عهد إلى محمد بن المغيرة إدارة الشـرطة، وعبدالجبار ابـن المغـيره في الحجابة، وطلب من هشـام خلع نفسـه من ليلته تلك، ودعا هشـام أبناء عمومتـه وكبار قيـادات قرطبة والعلمـاء والفقهاء والوجهاء في جوف الليل، فخلع نفسـه وتقلدها محمد بن هشام ولقب نفسه بالمهدي.

وبهذا تنتهي حقبة الخليفة الضـعيف هشـام المؤيد بعد أن قضى في الخلافة الاسمية نحو ثلاثة وثلاثين عاماً كان الحكم الحقيقي فيها للمنصور بن أبي عامر وأبنائه.

هذا التحول الكبير بعد ثلاثة وثلاثين عاماً من الاستقرار والهدوء والنصر المؤزر الذي أحرزه محمد بن أبي عامر المنصـور وابنه عبدالملك المظفر، كان يؤمل أن يسـتمر على يد الخليفة محمد بن هشام بعد فشل عبدالرحمن بن أبي عامر في السير على نهج أبيه وأخيه، لكن محمد بن هشام خيب الآمال وفتح الباب على مصراعيه لنهاية الحكم الأموي.

أراد الخليفة الجديد السـيطرة على قصور العامريين في مدينتهم التي ابتنوها وسموها الزاهرة وهي قريبة من قصـر الخلافة بقرطبـة، فندب حاجبه عبدالجبار بن المغيرة لهذه المهمة، فسار مع العامة والسوقة واللصوص ومن تطوع من الفرسان، وكانت غايتهم نهب ما يمكن نهبه، فكان قصر عبدالملك المظفر وأمه «الذلفاء» التميمية التي ساعدت بمالها وجاهها في هذه الثورة أول المكتوين بنارها، حيث داهم العامة مع عبدالجبار بن المغيرة دارها ونهبوا ما فيها، واصـطفى الخليفة المهدي من المال والجوهر أنفسـه، ويقال إنه بلغ أكثر من خمسة آلاف دينار من النقود، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وأطلق حرائر نسـاء بني عامر واصـطفى الجواري، أما «الذلفاء» فأذن لها المضي للإقامة بمنزلها بوسط المدينة، كما هدم قصر الزاهرة مع من رافقه من العامة حتى اختفت معالمه.

علم عبدالرحمن بن أبي عامر «شنجول» بما حلَّ بقرطبة فسارع بالعودة إليها غير أنَّ الأمر قد تغير في قرطبة، وبتغيره تغيرت النظرة إليه، فقد أفتى القاضـي أبو العباس بن ذكوان بفسـق عبدالرحمن بن أبي عامر، وهو المماثل للعامريين والمنصـب لعبدالرحمن ولياً للعهد، كما تنكر له زعيم برابرة زناتة محمد بن يعلن الزناتي، فعلوا ذلك خوفاً على أنفسهم من أهل قرطبة.

وعاد عبدالرحمن إلى قرطبة بعد أن تخلى عنه الكثير ولم يبق معه إلا القليل، ليحاول الفرار حيث اختفى في دير، لكن محمد بن هشام علم بذلك فأرسل إليه من قتله واجتز رأسه، وحملت جثته على بغلة إلى الخليفة الجديد محمد بن هشام الملقب بالمهدي، فحنطت ووضع عليها الرأس وألبست كسوتها ونصبت على خشبة.

قال أحد المعاصرين لتلك الحوادث:

«من أعجب ما رأيت من عبر الدنيا أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع عشر ليلة بقيت من جماد الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء تتمة الشهر، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة، وهدم مدينة الزهراء، وخلع خليفة قديم الولاية هو هشام بن الحكم، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد، ولا وقع عليه اختيار، وهو محمد بن هشام بن عبدالجبار، وزوال دولة آل عامر، وكرور دولة بني أمية، وإقامة جنود من العامة المحشودة عوض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة، ونكوب وزراء جلَّهَ ونصب أضدادهم، تقتحمهم العين هجنة وقماءة، وجرى ذلك كله على يد بضعة عشر رجلاً من أراذل العامة، حجامين وخرازين وكنافين وزبالين، تجاسروا عليه، وقد تكفل المقدور بوقوعه، فتم منه ما لم يكن في حسبان مخلوق تمامه».

لم يكن محمد بن هشام الملقب بالمهدي حكيماً، فأخذ في التقليل من شأن البرابرة والنيل منهم لمواقفهم المناصرة للعامريين، حتى إنَّ العامة قامت بالسطو عليهم ونهب دورهم، كما رد بعض زعمائهم ومنعهم من دخول القصر، وسرت شائعات بأنه ينوي الفتك بهم، وانتقلوا إلى ضواحي قرطبة خشية من بطش محمد بن هشام بهم، إضافة على ما يلقونه من إهانة العامة لهم.

أما الخليفة السابق هشام المؤيد الذي ظل ثلاثة وثلاثين عاماً خليفة اسمياً تحت حكم العامريين فقد حبسه محمد بن هشام مع جواريه في أحد المنازل بقرطبة.

وتوفي واحد من أهل الذمة وكان شبه الخليفة هشام في الشكل، فأعلنت وفاة الخليفة، وأحضر الفقهاء والوزراء فشهدوا بأنه الخليفة المؤيد حقاً، والله أعلم بشهادتهم، فربما تكون المنجاة من السيف شرطاً لإدلائهم بالشهادة.

ولما ظنَّ الخليفة محمد بن هشام الملقب بالمهدي أنَّ الأمر استتب له، ترك لهواه العنان، فانكب في معاقرة الخمر، وأسرف في المجون، وجاهر بالفسق، وغرق في الملذات، فكان شر خلف لشر سلف.

ولم يكتف بما كان فيه من مجون، بل تعداه إلى ما هو أخطر على نفسه وعلى سلطان بني أميه وعلى المسلمين بالأندلس، فقد طال عبثه حتى بطش بكثير من الجند ومنع أرزاقهم وسجن ولي عهده سليمان بن هشام، وزادت مجاهرته بالحقد على البربر؛ فتحرك هشام بن سليمان الناصر والد ولي العهد المعتقل وعزم على خلع محمد بن هشام وأسرَّ نجواه، واجتمع حوله عدد من البربر والعامريين، وتدخل ابن ذكوان القاضي والفقيه أبو عمر بن حزم للإفراج عن ولي عهده سليمان بن هشام ففعل، وجمع المهدي ما لديه من قوة، واجتمعت إليهم العامة، ودار قتال بين الخليفة محمد بن هشام ومن معه من العامة والجند، وبين هشام بن سليمان الناصر وابنه سليمان ولي العهد السابق وأخيه أبي بكر من جهة أخرى ومعهم البربر وبعض خصيان العامريين وعبيدهم، فكانت الدائرة على هشام وانتصر الخليفة وقبض على هشام وأبيه وأخيه فقتلهم جميعاً، وهجم العامة على البربر وصدورهم تمتلئ حقداً عليهم، فاغتصبوا النساء وسبوهنَّ، وقتلوا الرجال، فخشي الخليفة المهدي العاقبة فأعطاهم الأمان بعد أن نال منهم ما يشفي غليله السقيم.

وقد تمكن بعض زعماء البربر وبعض عامتهم من الهرب، وكان بصحبتهم سليمان بن الحكم بن عبدالرحمن الناصر، ورشحوه للخلافة وتلقب بالمستعين بالله بَدلاً من محمد ابن هشام الملقب بالمهدي، وكان لا بد لهم من طلب العون من قوة أخرى خارجية، فكان سانشو غرسيه أمير قشتالة بغيتهم، وهو الذي أذله العامريون ودكوا حصونه حتى أجبر على تزويج المنصور بابنته تقرباً له وخوفاً من قوته وفتوحاته، وهو جد عبدالرحمن بن أبي عامر «شنجول» لأمه.

رحب «سانشو» بالفكرة، ووجد فيها فرصة سانحة للقضاء على المسلمين مستغلاً هذا الخلاف بين فرق إسلامية كانت قبل أشهر معدودة قوة واحدة تدك حصونه، واشترط عليهم إن انتصروا أن يسلموا له جميع الحصون التي استولى عليها المنصور ابن أبي عامر من قبل، فقبلوا.

وسار المستعين بالله والبربر وجيش سانشو إلى قرطبة، فخرج إليهم في الطريق وبالقرب من مدينة سالم الفتى واضح أحد فتيان الخليفة المهدي رأس البلاء على المسلمين مع عبدالرحمن العامري، وهُزِمَ واضحٌ هزيمة نكراء ففر إلى قرطبة مع فلول جيشه، واستمر جيش المستعين بالله ومعه البربر بقيادة زعمائهم مثل زاوي الصنهاجي، وبُكساس بن سيد الناس، ومحمد المغراوي ومعهم جيش سانشو، فانهزم جيش المهدي ودخل سليمان المستعين بالله ومن معه من البربر والنصارى إلى قرطبة عاصمة الخلافة، ليسجل التاريخ أسوء سطوره وأكثر مآسيه بدخول سانشو قرطبة، وقتل أكثر من عشرين ألفاً من الأئمة والفقهاء والعلماء والعامة، فتنهب المدينة، وتداس الكرامة، وتحرق الكتب، وتضاف مأساة عظيمة فارقة في سجل المسلمين.

هذه الأحداث ولَّدت نمطاً جديداً من المآسي أبطالها المسلمون أنفسهم، لتكون بداية نهايتهم في هذين العامين اللذين وقعت فيهما الأحداث الجسام ٣٩٩ و٤٠٠ هـ.

وفر الفتى المسمى واضحاً لمَّا أيقن بالهزيمة، أما محمد بن هشام المهدي فقد لجأ إلى حيلة من حيل السخفاء؛ وذلك بإخراجه للخليفة السابق هشام المؤيد الذي لم يكن له دور قط سوى اللهو والمجون وجعله ألعوبة يأتمر به من يشاء ويستفيد منه كل مستفيد، والغريب أنه يظهر ويختفي دون أن يقتل بينما يقتل غيره والله أعلم بعباده.

وأرسل القاضي ابن ذكوان لإقناع البربر بأن المهدي لم يكن إلا نائباً للخليفة الحقيقي هشام المؤيد الذي أظهره الله، ولا أعلم كيف يسعى القاضي ابن ذكوان في أمور يميل معها حيث تميل الريح.

لكن سليمان المستعين لم يلتفت إلى هذه الحيلة، ودخل زادي بن زيري ومن معه من زعماء البربر مثل بكساس بن سيد الناس وغيرهم إلى القصر في قرطبة، وهرب الخليفة محمد بن هشام المهدي إلى طليطلة عازماً على المعاودة مرة أخرى، ومن العجب أن يكون في فترة واحدة ثلاثة خلفاء للمسلمين، دلالة على ما وصل إليه الأمر من مأساة حقيقية.

ومرة أخرى يلجأ الخصم إلى عدو آخر من النصارى، وفي هذه المرة محمد بن هشام المهدي يلتمس العون من أمير برشلونه ابن أدفونش لإسقاط المستعين بالله، وقد اشترط

حليفه عليه شروطاً قاسية مثل الإمداد بالشراب والطعام، وإعطاء كل محارب دينارين في اليوم، وغيره من الشروط المتعلقة بالأرض، فقبل ذلك كله لحقده على ابن عمه المستعين ومعه البربر.

وسار جيش محمد بن هشام المهدي مع حليفه النصراني إلى قرطبة، ودارت معركة انتهت بفوز محمد بن هشام المهدي وحليفه ودخوله قرطبة مرة أخرى.

ويضحك التاريخ على المسلمين مرة أخرى، وتبدو لنا حقائق كما لو كانت أحاجي، حيث يتآمر الفتى واضح مع فتيان القصر على الخليفة القديم الجديد الفاسق الماجن محمد ابن هشام المهدي بعد أن ضاقوا ذرعاً بأفعاله، فيتم الحجر عليه وإخراج الخليفة القديم الألعوبة هشام المؤيد من القصر وينصب على كرسي الخلافة، ويقدم له ابن عمه الخليفة محمد بن هشام المهدي ليأمروه أن يأمر بجز رأس ابن عمه فيتم ذلك، وبهذا يسترد الخليفة الاسمي هشام المؤيد خلافته البائسة وهو في السابعة والأربعين من عمره.

ويرسل الفتى واضح برأس المهدي إلى الخليفة السابق اللاحق أيضاً المستعين بالله طالباً منه ومن البربر الذين معه مبايعة هشام المؤيد، فلم يستجيبوا، وأصرَّ سليمان المستعين على الخلافة، ووافقه في ذلك من معه من البربر، ليسير بجيشه إلى قرطبة حيث دارت معركة انهزم فيها أهل قرطبة، فحاول واضح الهرب غير أنَّ أعوانه اجتزوا رأسه وطافوا به في قرطبة بعد أن دخل سليمان المستعين إليها.

أما مصير الخليفة القديم هشام المؤيد فاختلف في مصيره، فهناك من يقول إنَّ محمد ابن سليمان المستعين قد قتله، وهناك من يقول إنه عاش في بؤس وفقر حتى مات.

لم يجلب الخليفة سليمان المستعين وجموع البرابرة للمسلمين خيراً وقت توليه ووقت انكساره، فكان وقت ولايته في المرة الثانية التي دامت سبع سنوات غصة في حلق أهل قرطبة، ظالماً لهم، مستبيحاً حرماتهم، أما في وقت انكساره فكان يعبث في القرى التي تطؤها حوافر فرسه فساداً تاركاً لمن معه من البربر الحرية المطلقة في الفتك والسبي وظلم الناس.

وولىَّ البرابـر والعبيـد على الأعمـال والنواحي، فولُّوا المدن العظيمـة، وتقلدوا البلاد الواسعة، مثل «بادس بن حبوي» في غرناطة، كما نشأت ممالك مثل ابن عباد في إشبيلية، وابـن الأفطس ببطليموس، وابن ذي النون بطليطلة، وابن أبي عامر ببلنسـية، وابن هود بسرقسطة، فتكونت دويلات الأندلس وملوك الطوائف.

قال عنه ابن حيان: «كانت سنينه كلها شداد نكدات، صعاب مشؤومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيه حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا فقـد محذور، مع تغير السـيرة، وخـرق الهيبة، واشـتعال الفتنة، واعتلاء المعصـية، وظعن الأمن، وحلول المخافة، دولة كفاها ذمّ أن أنشـأها شانجة، وقشعها أرمفند، وثبتها الجلالقـة، مزقتهـا الإفرنجـة، ودبرها فاجر شـقي، ووزَّر لها خبٌّ دني، فتمخضـت عن الفاقرة الكبرى، وآلت بمن أتى بعدها إلى ما كان أعضل وأدهى، مما طوى بساط الدنيا، وعفى رسمها، وأهلك أهلها».

obeikandl.com